***النهـضة الأدبـية في الجـزائر***

***1/ السياق السياسي و الإجتماعي و الثقافي للأدب الجزائري في العصر الحديث***

**توطئة**:

لا يمكننا أن نتلمس الظاهرة الأدبية في الجزائر، دون إلقاء الأضواء على الإرهاصات الفكرية والتطلعات السياسية ، لأن دراسة الطبيعة وإلقاء الأضواء على البيئة بكل أبعادها، مدخل لدراسة الظاهرة الأدبية. ويساعد ذلك أيضاً على تتبع الجذور العميقة للنبتة الأدبية. ولعل الكشف عن بعض الظروف السياسية والاجتماعية التي عرفها القرنان التاسع عشر والعشرون في الجزائر يزيح الستار عن بعض العوامل التي غذّت الأدب في هذه الفترة، وفعّلت الحركة الأدبية ونشطتها. خاصة بعد الحرب العالمية الأولى إذ يمكن اعتبار العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين المنبع الأساسي لكل الروافد الفكرية والسياسية لهذه الحركة.

ويمكن التأريخ للنهضة الأدبية في الجزائر بالنصف الأول من القرن التاسع عشر. وقد ارتبطت النهضة بنظيرتها في المشرق وفي المغرب العربي بدءاً من هاذ التاريخ. لذلك سنعرض أهم المحطات السياسية والفكرية والظروف الاجتماعية في هذه الحقبة الزمنية (القرنان التاسع عشر والعشرون ).

I ـ **السياق السياسي**: إن الوضع المزري الذي آلت إليه الجزائر بعد الاحتلال، هو الذي ساعد على اشتعال نيران المقاومات الشعبية في كل ربوع الوطن. فقد مُسّ الجزائريون في مقدساتهم ومصالحهم العامة، إذ أغلقت بعض المساجد ودور العبادة، وخرّب البعض الآخر، وحوّلت غيرها إلى كنائس ومؤسسات عامة. كما سُلبت الأراضي من أصحابها الشرعيين، ولاسيما الأراضي

الخصبة التي تقع شمال البلاد فأصبحت أملاكاً للمعمرين. أما المدارس العربية التي كانت مصدر إشعاع للثقافة والعلم، فقد خربت واضطهد القائمون عليها، فتركوها مكرهين. فلا مناص إذن أن يكون رد الفعل على هذه الوحشية عنيفاً. فكانت هذه الثورات المتأججة التي لا يكاد المستعمر يخمد واحدة حتى تضطرم له أخرى، تعبيراً عن الرفض المطلق للتواجد الاستعماري وأساليبه البغيضة، وحرصاً على محاربته ورغبة في التخلص من هيمنته.

وقد اختلفت هذه الثورات قوة وضعفاً طولاً وقصراً حسب الظروف. ولعل أهم هذه المقاومات (أطولها مدة وأكثرها قوة )، هي مقاومة " الأمير عبد القادر الجزائري"(1831 ـ 1848) في الغرب الجزائري، إلى جانب " ثورة أحمد باي " في الشرق الجزائري (1831 ـ 1848) والتي كانت متزامنة مع ثورة الأمير. وثورة " بوبغلة " و" لالا فاطمة نسومر " في بلاد القبائل (1850 ـ 1857)، و ثورة " المقراني " وبومرزاق والشيخ الحداد زعيم الطريقة الرحمانية بوسط البلاد (ببرج بوعريريج ـ بجاية ـ وادي الصومام إلى متيجة ) سنة (1871 ـ 1872). وثورة أولاد سيدي الشيخ، والشيخ بوعمامة بالجنوب الجزائري (1864 ـ 1880) و( 1881 ـ 1908) على التوالي. وقد التفّ الجزائريون حول هؤلاء القادة والزعماء تقديراً لهم، وإيماناً بحتمية الجهاد والتضحية من أجل الوطن المغتصب، وذلك رغم قلة الإمكانيات والتباين الكبير في موازين القوى بين المحتل والجزائريين.

وخلال هذه الفترة أصدرت فرنسا مجموعة من القوانين الجائرة، كانت آثارها وخيمة على الشعب الجزائري، أهمها قوانين تنص على إلحاق الجزائر بفرنسا، واعتبارها جزءاً من ممتلكاتها في إفريقيا. وقانون الأهالي " الأندجينا "(les indigènes)، وهو من القوانين العقابية للجزائريين، ينص على إيقاع عقوبات جماعية على الجزائريين، ومصادرة أملاكهم، وسجنهم دون محاكمة، ومنعهم من التنقل داخل الوطن أو خارجه، إلا بإذن من الحكومة الفرنسية.

كانت هذه القوانين، إذا، شبيهة بقانون الرق والعبودية في العصور الغابرة. وقد عبّر عن هذا الوضع " توفيق المدني" في كتابه " تاريخ الجزائر " قائلاً:« ضيقت الخناق على الأمة

وأخمدت أنفاسها، وجعلتها تعيش في جو مظلم وحالة ضغط يصعب تصورها، وقلّما يستطيع العقل تصديقها ».

وبعد الحرب العالمية الأولى، رأى الجزائريون ضرورة تغيير الخطة من المقاومة المسلحة إلى المقاومة السياسية، أو النظام السياسي، فظهرت حركات سياسية مختلفة تدافع عن حقوق المواطنين، وتطالب بالمساواة بينهم وبين الفرنسيين. وأول هذه الحركات حركة الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر سنة 1919، الذي شكّل واجهة جزائرية قوية أخذت تدافع عن حقوقها وتقوم بحملتها في فرنسا والجزائر، بواسطة الخطب والمقالات المنشورة في الصحف والمجلات. وقد كانت جريدة " الإقدام" باللسانين العربي والفرنسي، منبرا لاتجاهه السياسي، ومنطلقاً للأفكار التي تصب في هذا الاتجاه. وقد تمكن من رفع القضية الجزائرية إلى " فرساي " حيث يعقد مؤتمر السلام على مبادئ " ويلسون " العشرة، فطرح مطالب الجزائر في المؤتمر على الرئيس الأمريكي " ويلسن " دون أن يعرج على الحكومة الفرنسية.

وقد كان حزبه قائماً على معاداة دعاة الإندماج، وعلى المطالبة بالمساواة التامة بين الجزائريين والفرنسيين في المجلس الوطني، وإلغاء القوانين الخاصة بالأهالي، وتطبيق قانون التعليم الإجباري حتى على الجزائريين. إلا أن الاستعمار كان بالمرصاد لهذه الحركة، فلم تمض خمس سنوات على وجودها حتى أرغم زعيمها عل مغادرة الجزائر إلى منفاه سنة 1925 (سوريا أو الإسكندرية ).

وقد لعبت هذه التجربة السياسية الخالدية دوراً طليعياً في الحياة الفكرية والسياسية في الجزائر. فقد عاش الفكر الجزائري على رصيدها حيناً من الدهر، فمقالاته الرائدة في جريدة " الإقدام " ومواقفه الخطابية فجّرت المظاهرات الوطنية في قلب باريس، والقصائد القومية المبكرة التي كانت تنشرها هذه الجريدة في أعقاب الحرب العالمية الأولى، كانت تمثل الشحنة الوطنية الكامنة.

ولم يكن المستعمر وحده الجاني على الأمير خالد، بل أتباعه أيضاً، وهو وجه آخر للنشاط السياسي الخادم للاستعمار. وهو نشاط وليد الطابع الديمقراطي الخادع الذي ساد السياسة الفرنسية، فتخرجت على خداعه نخبة من أبناء الجزائر تثقفوا ثقافة فرنسية، فنادوا بالتجنس، واستعجلوا الإدماج والدخول في الحضارة الفرنسية.

وقد دافعت الإدارة الفرنسية عن هذه النخبة المناصرة لها، ووضعت أفرادها على رؤوس القوائم الانتخابية لتتسلح بهم نواباً في مناهضة الاتجاهات الوطنية، كاتجاه " الأمير خالد ". وقد كان لهم نشاطهم الأدبي والسياسي، فأصدروا جريدة " التقدم " العاصرة " للإقدام "، ومشاكلة لها في لسانها العربي والفرنسي، وتعززها النوادي والمواسم الثقافية. إلا أن هذا الاتجاه لم يكن له الأثر العميق والمباشر في النص الأدبي كالأثر الذي تركه اتجاه " الأمير خالد "، ولكن أثره كان أبعد في ردة فعل المناهضين له، بظهور حركات سياسية أخرى تمثل امتداداً للحركة الخالدية، واستمراراً لها بصور مختلفة. إذ ظهرت سنة 1924 حركة سياسية قوية هي جمعية" نجم شمال إفريقيا " التي ترأسها " مصالي الحاج ". وقد تم تأسيس هذا الحزب بباريس بمشاركة الأمير خالد، وتوجيهه، وقد دام نشاطها 12 سنة، تعرض فيها للمضايقات، فاعتقل زعيمها وسجن. وبعد خروجه من السجن أسس " حزب الشعب الجزائري " سنة 1937، وهو من أجرأ الأحزاب التي عرفتها الساحة الجزائرية وأكثرها تأثيراً على الأفكار التي جاءت فيما بعد. إذ كان من أهم مبادئه المطالبة بالانفصال التام عن فرنسا، وهو ما يدل على عمق النظرة السياسية لدى أعضائه.

وانطلاقاً من الحرب العالمية الثانية، اشتد الصراع السياسي بين الوطنيين الجزائريين والاستعمار، فتضاعفت المقاومة السياسية، واتخذت أشكالاً مختلفة. وظهرت أحزاب سياسية متباينة، كالحزب الشيوعي الجزائري، وحرب " أحباب الحرية والبيان "بزعامة " فرحات عباس"

وإلى جانب ظهور حركة الإصلاح بزعامة " عبد الحميد بن باديس " في تأسيسه " جمعية العلماء المسلمين ". وحتى وإن بدا هذا الاتجاه فكرياً ودينياً، إلا أنه كانت لها أهداف سياسية بعيدة لم تغب عن بال الحركة إلى جانب أهدافها الإصلاحية والتربوية. فقد وجدت " جمعية العلماء "

نفسها مضطرة للدفاع عن مبادئ الدين الإسلامي وصون لغة الضاد في الجزائر. وقد قاومت المستعمر مقاومة سياسية عنيفة، وقعها أشد من المقاومة المسلحة، وذلك بما علّمت من شباب، ووعظت من شيوخ، وبنت من مدارس، وبما نهضت به من أعمال كانت كلها في صالح العربية والإسلام في الجزائر. إلا أن أصحابها وعلماءها لم يفلتوا من السجن والنفي والمضايقات الشديدة.

ولقد أثرت كل هذه الحركات السياسية والإصلاحية في مجرى النشاط السياسي في الجزائر. ولكن أكثر الأحداث تأثيراً فيه، وكانت له نتائج سياسية مباشرة هي " مجزر 8 ماي 1945". كان قمع هذه المظاهرات الشعبية وحشياً ورهيباً ـ 45 ألف قتيل ـ لذلك كان تأثير هذه " المذبحة " عميقاً على الأحداث السياسية التي تلتها، لتكون إرهاصاً لثورة نوفمبر 1954 م، إذ اجتمعت جميع الأحزاب السياسية الجزائرية سنة 1951 م، لتشكل جبهة سياسية موحدة تنذر بقيام ثورة وطنية مسلحة شاملة، يشارك فيها الشعب كله، بعد أن فشلت جميع المحاولات السياسية السلمية. وفعلاً كان ذلك فكان الانتصار، وكان الاستقلال.

II *ـ* ***السياق الاجتماعي***: عانى الشعب الجزائري من ويلات الفقر والجهل والتشرد والبؤس والحرمان بعد تجريد السكان من ممتلكاتهم وإرغامهم على النزوح نحو الجبال، أو الهجرة إلى خارج الوطن، وأهم ما يبرز إلى الواجهة أثناء دراسة الحياة الاجتماعية في هذه الفترة، ظاهرتان هما: الهجرة إلى الخارج، والصراع الطبقي بين السكان.

***أ*** *ـ* ***الهجرة إلى الخارج***: بدأت هذه الهجرة بعد الاضطهاد السياسي الحاد الذي كان يصُبّه الاستعمار الفرنسي على الجزائريين، بدءاً بالهجرة الداخلية التي تمثلت في فرار السكان من منطقة إلى أخرى طلباً للأمن، ورغبة في العيش الهنيء، وصولاً إلى الهجرة الخارجية، مشرقاً ومغرباً، هجرة 20 ألف جزائري إلى سوريا سنة 1911، هجرات إلى المغرب وتونس، والهجرة إلى فرنسا التي بدأت تتزايد من سنة إلى أخرى، إلى أن وصلت إلى 250 ألف جزائري مهاجر سنة 1945. وكل ذلك كان نتيجة القهر والفقر خاصة حين أغلقت أبواب الرزق أمام السكان لاسيما فئة الفلاحين. إلى جانب

ظاهرة فرار الشباب الجزائري من السلطات الفرنسية التي كانت تطالبهم بالتجنيد الإجباري في صفوف جيشها.

وفي الوقت الذي نلمس فيه هجرة الجزائريين إلى فرنسا، نرى هجرة من نوع آخر، وهي هجرة الأوربيين إلى الجزائر، بغية الاستيطان. وأهم هؤلاء النازحين هم: الفرنسيون ـ ويشكلون أكبر نسبة ـ الأسبان، الإيطاليون، والمالطيون. وكل هؤلاء شكلوا طبقات سكانية مختلفة عن السكان الأصليين.

ب ـ ***الصراع الطبقي بين السكان***: عرف المجتمع الجزائري طبقات اجتماعية متصارعة بحكم الاختلاف في العرف والدين. فالاختلاف في أصول السكان أنشأ جواً فيه الكثير من الحدة والصراع الذي يبلغ في أحيان كثيرة مبلغ الحقد والضغينة. ويمكن حصر هذه الطبقات في ثلاث:

**1 ـ طبقة السكان الأصليين:** وكان هؤلاء مضطهدين سياسياً، محرومين اقتصادياً، مهملين اجتماعياً. وهم الأمازيغ والعرب والكراغلة ( آباءهم أتراك وأمهاتهم جزائريات ). وقد كانوا محرومين من كثير من الحقوق التي كانت تتمتع بها عناصر السكان الأخرى من الأوربيين، كحق تعليم الأطفال، مما أدى إلى انتشار الأمية والجهل.

**2 ـ طبقة اليهود**: وهم والمسيطرون على رؤوس الأموال، قبل الاحتلال وبعده، إذ ظلوا متمتعين بكثير من الامتيازات، ويتحكمون في كثير من الأجهزة الاقتصادية والمالية والصناعية في الجزائر.

**3 ـ طبقة الأوربيين**: وتتألف من طبقة الإقطاعيين البورجوازيين الذين سيطروا على الأراضي المسلوبة من ذويها، فكانت أكبر المزارع، وأضخم المصانع، وأكثر الشركات في الجزائر تحت سيطرتهم.

وهذا البون الشاسع بين الطبقات الثلاث، جعل الحياة الاجتماعية مختلفة باختلاف كل طبقة. ولا يعني ذلك أن كل الجزائريين كانوا فقراء، بل كان منهم ذوو الجاه والمال، ولكن عددهم قليل بالمقارنة مع باقي الطبقات. لذلك ذابوا في الطبقة الأصلية.

*III ـ* ***السياق الفكري و الثقافي***: ذكر " فرحات عباس " في كتابه " ليل الجزائر " أن الباحثين والمؤرخين الفرنسيين الذين عالجوا فترة الاستعمار في الجزائر، قد أجمعوا على أن الثقافة العربية كانت مزدهرة نسبياً آنذاك، وأن معظم السكان الجزائريين قبل الاستعمار، وفي بدايته كانوا يتقنون القراءة والكتابة والحساب، وأن عدد المدارس كان يفوق ألفي مدرسة.

ويدل هذا الإجماع على أن الشعب الجزائري كان ذا حظ وافر من المعرفة والثقافة، وهو ما يؤكده أحد المؤرخين الفرنسيين الذي أثبت أن الشعب لم يكن أمّيّاً. يقول:« كان يُعتقد أن الشعب الجزائري كان أمياً، وإنما الاستعمار هو الذي جاءه بالثقافة والعلم، ومع أن ذلك خطأ محض ». ويورد مؤرخ آخر نصاً يؤكد أن الجزائريين سنة 1830 كانوا ربما أكثر ثقافة وتعلماً من الشعب الفرنسي، وذلك أن جميع الرجال كانوا يحسنون القراءة والكتابة. ( النص مأخوذ من كتاب " Histoire de l’Algérie contemporaine. Charles André julien ").

وقد أقرّ " فرحات عباس " في الكتاب نفسه أن المواد التي كانت تدرس في المعهد الجزائرية، لم تكن تختلف عن المواد التي كانت تدرس في باقي العالم العربي. وأهم هذه المواد: الفلسفة والآداب وعلم الكلام والفقه والتفسير والحديث والتاريخ والجغرافيا والحساب.

أما بعد الاستعمار، فقد حاول المحتل أن يطمس هذه الثقافة، ويقضي على أهم معالمها، فلم يسمح لها أن تفرض وجودها خاصة في المدن. ولكن بعد الحرب العالمية الأولى أصبحت هذه الثقافة تنافس الفرنسية وتضايقها، وذلك بعد تأسيس المطابع العربية، وإصدار الصحف الوطنية، وبناء المدارس الحرة التي كانت تشرف عليها الأحزاب الوطنية، وجمعية العلماء المسلمين بوجه أخص.

وقد نشأت اتجاهات فكرية متصارعة ومتعارضة خلال فترة الحربين العالميتين الأولى والثانية إلى غاية اندلاع الثورة، فاستفادت بذلك الثقافة العربية في الجزائر استفادة كبيرة من هذا الصراع الفكري ونشأت حركة أدبية مباركة. وتشمل هذه الاتجاهات المتصارعة: الاتجاه الصوفي الطرقي ـ الاتجاه الإصلاحي ـ والاتجاه الأدبي ـ والاتجاه الناطق باسم الاحتلال والمناصر له.

وهذا الاتجاه الأخير يمثله علماء تخرجوا من معاهد أنشأتها " فرنسا " في كل من قسنطينة والجزائر وتلمسان سنة 1856، وذلك لغرض استبدال الإسلام بإسلام تكيّفه على حساب أهوائها، فتخرج منها علماء دين رسميين بشهادة المحتل. وقد وصف " بيرك " هذه الشهادات التي تعتز بها الإدارة الفرنسية في تقييم هؤلاء قائلاً:« لقد وصل بنا امتهان واحتقار الدين الإسلامي إلى درجة أننا أصبحنا لا نسمح بتسمية المفتي أو الإمام إلا من بين الذين اجتازوا سائر درجات التجسس، ولا يمكن لموظف ديني أن ينال أي رقيّ إلا إذا ما أظهر للإدارة الفرنسية إخلاصاً منقطع النظير ».

وقد نوّهت كثيراً جريدة " المبشر " الناطقة باسم الاحتلال بحضارة وتقدّم فرنسا، وفضلها على الجزائر. وأغلب الذين أشرفوا على القسم العربي من هذه الجريدة كانوا من علماء الدين الرسميين.

وقد احتدم الصراع بين هذه الاتجاهات المختلفة نتيجة اختلاف المذاهب والأهواء. فقد حارب العلماء المصلحون (ج ع م) الطرقية الصوفية لتهاونها وتواطئها مع الاحتلال في أيامه الأولى، ولرجعيتها وجمودها وتقاعسها. وقد دافعت هذه الطرقية عن مواقفها المُهينة فأنشأت صحفاً ومجلات إلى جانب صحف ومجلات حركة الإصلاح، فتراشقوا بالمقالات والخطب، وبلغ الفكر الجزائري ذروته في هذه الفترة.

ونبعت أيضاً من هذه الاتجاهات المختلفة نوادٍ ثقافية وفكرية غذّت النشاط الفكري بالمحاضرات التي كانت تلقى في المواسم الثقافية التي تنظمها. وبذلك ظهر اتجاه أدبي محض يعالج كل هذه القضايا المطروحة في الساحة الثقافية، فكتب الكتاب المقالة الأدبية والقصة والمسرحية، بالإضافة إلى القصيدة الشعرية، كما نشأ من هذا التفاعل الثقافي حركة تأليف ابتدأت بصورة واضحة بعد الحرب العالمية الأولى، فظهرت كتب في الأدب والتاريخ والجغرافيا والدراسات الإصلاحية والدينية بالإضافة إلى الكتب المدرسية، وبعض الدواوين الشعرية.

لكن المستعمر حاول بكل قوة أن يعطل هذه النهضة بغلق المدارس، ومنع العلماء من التعبير، واضطهاد المثقفين بالعربية، والتضييق عليهم، مما دفع بالكثير منهم إلى الهجرة إلى البلدان العربية شرقاً وغرباً.